الأدب الإسلامي ، إشكالية المصطلح

د. موسوني محمد
جامعة تلمسان
الجزائر

الملخص : من هدف هذا البحث هو توضيح الزخم المصطلحاتي الذي استبشر به نقادنا العرب و هلّلوا له.والوحدة اللغوية في مصطلح الأدب الإسلامي ، تقرأ من نسبة هذا الأخير إلى اللغة التي يكتب بها هذا الأدب، وتقرأ أيضا من مضمون هذا الأخير ، أي : إنه أدب منسوب إلى المضمون الذي ينطلق من منطلق عقيدي ، هو التصور الإسلامي الصحيح .

لا شك أن هناك شبهُ اجتماع لدى الدارسين في أن استعمال مصطلح الوحدة اللغوية ، و الأدبية يعرف اضطرابا ، وأنه ليس دائما دقيقا مضبوطا. وقد حدث أن « سحب بعض النقاد مصطلحاً واحداً على معان متعددة، و مفاهيم مختلفةٍ لاعتقادهم أن المعايير النقدية صالحةٌ أبداً ؛ فلا غرو أن تبقى لبنائُها خارجةً عن إطار الزمن بعيدة عن تأثير التطور »>> [1] . وقد جعل هذا الاضطراب من مصطلح الوحدة اللغوية أن يُعْرَفَ بِتَرَاكُمِيَّةٍ خلال القرن التاسع عشر إلى اليوم ، و الناتج عن الترجمة أو الكتابة الأصلية . فظاهرة الزخم المصطلحاتي الذي استبشر به نقادنا العرب و هللوا له يعلل من جانبين :

1- جانب نفسي : و يتمثل في إشهار المهتمين بالنقد بالتحرر من سلطات الوحدوية في المصطلح، فراحوا ينوعون فيه في دراساتهم النقدية .

2- جانب حضاري : هذا الجانب زاد من حدة الجانب الأول، كون النقاد في هذه المرحلة لم يستطيعوا مجاراة التحولات السياسية، و الاجتماعية، و الثقافية التي

اجتاحت البلاد العربية و الإسلامية على حد سواء ، وكأني بهم خافوا من الدخول في معركة لا يملكون لها سلاح من نوع خاص، فراحوا يسقطون مصطلحات تارة تكون صائبة و تارة أخرى تكون غير دقيقة جيء بها على شاكلة الموضة فقط ؛ الشيء الذي زاد في انغلاقية المنهج مما أفسد نقاوة الدراسة .

و قد نبه " سوسير " إلى هذه القضية عندما أقر بأن << اللسان ليس مجموع ألفاظ ، أي : قائمة أسماء تطلق على مجموعة من المسميات >> . (2)

و معنى هذا أن التصور المنهجي لأي دراسة ما إذا لم تتضح رؤيتُه في كيفية الربط التي تنجر عن دلالة المصطلح (الوحدة اللغوية) ، أي بين الدال و المدلول ، فهو منهج عاطل يزيد في تعقيد الدراسة .

و قد عانت كتب نقدية كثيرة مشهورة من مشكل مصطلح الوحدة اللغوية فمثلا : كتاب " معنى المعنى " لأوجدن و ريتشاردز « فعلى الرغم من ذيوع صيت الكتاب و عظيم خطره ، فقد عبر صاحباه عن ستة عشر مفهوما بلفظة واحدة هي لفظة "معنى" ، و ربما رجع ذلك إلى أن مفهوم "معنى" عند الباحثين لازال غامضا » (3).

و مما يفسر هذه الصعوبة ، أن الباحثين العرب في حقل اللسانيات ، وضعوا ثلاثة و عشرين وحدة لغوية مختلفة مركبة ، و غير مركبة للتعريف التالي ، أو المفهوم القائل:"الدراسة العلمية للغة البشرية " (4) وكمثال على هذه التعددية في المصطلح فهناك من يسمي المنهج البنيوي بالبنيوية،وهناك من يقول عنه البنائية،وإن كان الجميع يتفق على أن البنية لا تتشكل من ظواهر مستقلة عن الكل (5).

□ إشكالية مصطلح الأدب الإسلامي :

في البداية نتساءل لماذا لقي مصطلح "الأدب الإسلامي" معارضة عند طرحه في الساحة الأدبية و صلت إلى درجة الرفض،ووضع بدائل عنه ؟إنه بعيدا

عن دافع الذاتية ، يعود إلى شبهة في مصطلح الوحدة اللغوية المشكلة لهذا المصطلح .

فمصطلح الأدب الإسلامي عند البعض لا مسوغ له لعدم غيابه ، وإقصائه فالأدب في عصر النوبة و الخلافة الراشدة ، كان أدباً إسلامياً في جملته ، ولكن دائرة الأدب المضاد كانت تتسع عبر القرون بمقدار بُعْدِ المسلمين عن الالتزام بالإسلام؛ و جرأةُ بعض الشعراء على المجاهرة بالإلحاد و الزندقة ، إلى أن جاء العصر الحديث حيث اتسعت دائرة الأدب المضاد ، هذا الأدب الذي لا يعبر عن عقيدة الأمة ، و لا يبالي بثوابت الإسلام و لا بمتغيراته ، و أن هذه المضادة لا تعني غياب الأدب الإسلامي و لا إقصاءه ، كما أن هذا الغياب لا يعني إطلاقا التعارض بين الأدب الإسلامي ، و الأدب العربي .

فالوحدة اللغوية في مصطلح الأدب الإسلامي ، تقرأ من نسبة هذا الأخير إلى اللغة التي يكتب بها هذا الأدب تماما كما نقول : الأدب الإنجليزي – الأدب الفرنسي .

و الوحدة اللغوية لمصطلح الأدب الإسلامي تقرأ أيضا من مضمون هذا الأخير أي : إنه أدب منسوب إلى المضمون الذي ينطلق من منطلق عقيدي ، هو التصور الإسلامي الصحيح .

فاللغة البنائية أو البنيوية التي تشكل بنية المصطلح واحدة ، و أن هذه الوحدة اللغوية تتحدد بمقتضى مواقفها داخل الكل ، و أن معنى الكل أكبر من مجرد الأجزاء. فمصطلح الأدب الإسلامي ينظر إليه من جانب عقيدي بغض النظر عن اللغة التي كتب بها .

و مصطلح الأدب العربي ينظر إليه من جانب اللغة التي كتب بها ، فقد يكون إسلاميا ، إذ ساير المضمون التصور الإسلامي الصحيح ، و قد يكون

عقيدة متباينة أيضا .وليس بالضرورة أن يكون مصطلح الأدب الإسلامي مكتوبا باللغة العربية . وقد وضعت وحدات لغوية مختلفة كبدائل لمصطلح الأدب الإسلامي و هي كالتالي :

مصطلح أدب الدعوة ، و مصطلح " الاتجاه الإسلامي " و مصطلح " الأدب المسلم " و مصطلح " آداب الشعوب الإسلامية "، و نعتقد أنّ هذه البدائل عن مصطلح الأدب الإسلامي ؛ من خلال تشكيلاتها اللغوية توحي كلها بأنها حصرت هذا اللون من الأدب في قضية من قضايا الإسلام : ثوابت و متغيرات ، و في تصورنا هذا اضطراب في تحديد الوحدة اللغوية للمصطلحات النقدية .

فأدب الدعوة جزء من الأدب الإسلامي ، ولا ينبغي أن يحصر الأدب الإسلامي في أدب الدعوة فقط ، و الذي يعني : << التعبير الفني الهادف عن الإنسان و الحياة ، و الكون وفق التصور الإسلامي >> (6) فالأدب الإسلامي يشتمل على أدب الدعوة ، و أدب الدعوة جزء من الأدب الإسلامي .

بينما مصطلح " الاتجاه الإسلامي" طُرح من بعض المعارضين لمصطلح الأدب الإسلامي كحل وسط ، يكوّن اتجاها أدبيا في غرض من الأغراض الشعرية أو الأدبية . و هذا المصطلح يقلّل من شأن هذا الأدب « و من العجيب أن يرى الداعون إلى الاكتفاء بمصطلح الاتجاه الإسلامي كثيرا من المذاهب العالمية تقوم على فلسفات وضعية تخطيء أكثر مما تصيب، و يضنون على الإسلام الذي هو من صنع حكيم خبير؛ و الذي هو أرقى من كل النظم البشرية أن يكون له مذهب أدبي متميز » (7) .

أما مصطلحا الأدب المسلم ، و أدب الشعوب الإسلامية، لا شك أنهما نفس مصطلح الأدب الإسلامي . إذ يراد بكلمتي مسلم و الشعوب الإسلامية ، الأدب الذي يصدر عن المسلمين في زمان و مكان .

و الوحدة اللغوية لمصطلح الأدب الإسلامي قد تطرح مشكلا آخر خطيراً هل صدور أدب إسلامي من غير مسلم يعد أدبا إسلاميا ؟

" فمشكلة الأدب الإسلامي تتلخص في أنه لرحابة الإسلام ، و شموله يدخل في ذلك النوع من الأدب الذي يلتقي مع التصور الإسلامي ، و إن كان قائله غير مسلم ، إذ لا أستطيع أن أقول : إن هذه المقولة ليست إسلامية لمجرد صدورها عن فنان غير مسلم ، خاصة إذ كانت لا تشكل أي تحد من أي لون، لأي قيمة إسلامية .و أتصور أنّه تَخلُّصاً من هذا الإشكال ، لا بد أن يُغير المصطلح إلى الأدب المسلم ، لأنه غير دقيق ، و هو غير دقيق لأنه ليس مانعا . وإن كان جامعا أي أنه لا يستطيع أن يمنع دخول غير إسلامي – إذا لم يتصادم – إلى ساحة الإسلامي " (8) .

هذا و نجد مبدأ المعيارية قد يدخل على مصطلح الوحدة اللغوية في تدقيق المصطلحات ، كما هو الحال هنا عندما يطرح السؤال : أين تكمن المعيارية في مصطلح الأدب المسلم ؟ لا شك أنها تكمن في دين الأديب ، و في مضمون أدبه ، و في الاعتراف بإشكالية النص ذي المضمون المسلم ، مع أن صاحبه غيرُ مسلم ، ففي هذه الحالة الدراسة ترتكز على مقاربة منهجية . كل هذا نزولا عند المعيارية التي يفرضها مصطلح الوحدة اللغوية .

أما مصطلح الشعوب الإسلامية فدلالته التي تفرزها الوحدة اللغوية ، تكمن في علاقة احتواء الأدب الإسلامي لأدب الشعوب الإسلامية ، كما أن الوحدة اللغوية لهذا المصطلح تبدو فضفاضة ، حيث لا تصلح أن تكون عنوانا لمذهب أدبي قائم بذاته .

و للوحدة اللغوية لمصطلح الأدب الإسلامي بدائل أخرى أيضا منها : الأدب الديني ، و الأدب الأخلاقي ، و الأدب العقيدي . فالوحدة اللغوية لهذه

المصطلحات الثلاث ، تهوّن من شأن الأدب الإسلامي و تقلل من قيمته ، لما لهذا الأخير من صفة الشمول : فالأدب الإسلامي دين كامل

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي و رَضَيْتُ لَكُمْ الإسلامَ دِينَا ﴾ .

و الوحدة اللغوية لمصطلح الأدب الإسلامي قد تضيق دلالتُها ، إذْ ذهب بعضُ الدارسين إلى أن هذا الأدب « ينبغي أن يقصر على الأدب المكتوب باللغة العربية لأنها لغة القرآن الكريم ، و على من يريد من المسلمين غير العرب أن يكون لهم أدب إسلامي أن يتعلموا العربية ؛ كما تعلمها أجدادهم من الأعاجم في العصور السابقة » [9] .

و مثل هذا التضييق في المصطلح ضُره أكبَرُ من نفعه ، فهو يدعو إلى العصبية التي نهى عنها الإسلام ؛ « فالشعوب الإسلامية بأسرها لها أدبُها القومي أو المحلي المكتوب بلغتها ؛ و لهذا الأدب وجود قديم قبل أن تسلم هذه الشعوب و بعد إسلامها » [10] .

و إذا كان الغموض وارد في وضع مصطلح الوحدة اللغوية في الدراسات اللغوية و الأدبية ،« فالشقاء الذي نعانيه ليس حين نستطيع الجزم على مصطلح ما بالصواب،أو الخطأ ، وإنما حين لا نستطيع الجزم بأحد الأمرين» [11] .

و إذا كان مصطلح الأدب الإسلامي تعتريه شبهة أو اضطراب،كما تُمليه الوحدة اللغوية،فهو مصطلح يوحي بأن هذا الأدب هو تعبير فني هادف عن الإنسان و الحياة ، و الكون،وفق تصور إسلامي صحيح؛كما أن الأدب الإسلامي في صورته المتكاملة هاته لم ينضج بعد في الإنتاج البشري ، ولكن هذا لا نفي وجود بواكير متفرقة من هذا الأدب تنبيء بأنه قد ولد بالفعل،وأنه في طريقه إلى التكامل و النضوج [12]،ليصور بذلك الكيان الحقيقي الأصيل للإسلام والمسلمين،ويتيح فرصة اكتساب الذاتية المتميزة في المجتمع الإسلامي المتصل

الحلقات.

الهوامش

- (1) : مجلة الملتقى العلمي الأول لدراسة إشكالية المنهج في النقد الأدبي الجزائري الحديث ، المركز الجامعي ، سعيدة : 5 و 6 ديسمبر 1999 م ، ص : 35.
- (2) : Ferdinand de saussure - cours de lunguistique generale .

ENAG / Edition 1990

- (3) : مجلة الملتقى العلمي الأول لدراسة إشكالية المنهج في النقد الأدبي الجزائري الحديث ص : 36 .
- (4) : عبد السلام المسدي : قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح . الدار العربية للكتاب ، 1984م .
- (5) : المرجع نفسه : ص : 37 .
- (6) : مجلة الأدب الإسلامي السنة الثانية العدد : 08 سبتمبر ، 1995 ، ص : 8 .
- (7) : مجلة الأدب الإسلامي ، ص: 5 .
- (8) : صحيفة "المسلمون" العدد : 437 . 28 ذو الحجة 1413هـ ، 17 جويلية 1993 م ، ندوة الأدب بالمنصور .
- (9) : مجلة الأدب الإسلامي ، ص:7 .
- (10) : المرجع نفسه .
- (11) : جيلالي طاهر ، المصطلح اللساني في المغرب العربي،رسالة ماجستير 1998 ، نقلا عن مجلة الملتقى العلمي لدراسة إشكالية المنهج في النقد الأدبي الجزائري الحديث ص:40 .
- (12) : قطب محمد ، منهج الفن الإسلامي ،دار الشروق ،(دت) ،ص: 263.